

للدكتور على عبد المنعم عبد الحميد

> روى البخارى عن ابن شهاب : أن سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله احد ، حتى تكــون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها . » ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا ان شئتم ﴿ وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ .

١ خبر نزول عيسى عليه الســـلام بلغ حد التواتر وقد وردت الأحــاديث الشريفة الدالة على هذا الخبر فى جميع الكتب الصحيحة (١) وتحدث به شارحا ومؤكدا كل علماء التفسير والحديث من لدن أن سمع هذا الحديث ومنذ ان بدا عهد التدوين وجدنا أحاديثهم وآراء مسطورة فى آثارهم الشريفة وتنوقل قبـــل التدوين وجاء محكيا عن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم اجمعين كما حمله خبرا موثوقا مؤكدا متواترا التابعون وتابعوهم باحسان الى يومنا هذا ، ولنسرد على أنظار القارىء الواعى الذى يلقى السمع وهو شهيد آثارهم عبر قرون وقرون ثم نعقب بما يقتضيه المقام :

أ ـ قال الشيخ محمد السفاريني فى كتابه ((لوامع الانوار البهية ص ٩٤ جـ ٢)) (... ونزوله اى عيسى عليه السلام ثابت بالكتاب ، والسنة ، والاجماع اما الكتاب : فقوله تعالى : ((وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)) اى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ، ملة ابراهيم حنيفا مسلما . واما السنة : فقد ورد خبر نزوله فى الصحيحين وغيرهما (كما هو مبين بالهامش) . واما الاجماع : فقد أجمعت الأمة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة ، وإنما حاول الانكار الفلاسفة والملاحدة ، وقد انعقد اجماع الأمة على أنه ينزل ويحكم بالشريعة المحمدية) .

ب ـ ساق العلامة الحافظ ابن كثير القرشي فى كتابه (تفسير القرآن العظيم) ص ٥٧٨ جـ ١ ، كل الأحاديث الواردة فى نزول عيسى عليه السلام الى الأرض من السماء آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعند تفسيره قوله تعالى (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) ، قال : قال ابن جرير : اختلف أهل التاويل فى معنى ذلك ، واصح اقوالهم أن هذا الإيمان يكون عند نزول عيسى عليه السلام ، يعنى لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى الا آمن به قبل موت عيسى ، وهنا عقب ابن كثير بقوله : ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأن المقصود من سياق الآى هو تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى عليه السلام وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فاخبر الله سبحانه أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعه اليه وأنه باق حى ، وأنه سينزل قبل القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة ، فيقتل مسيخ الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية فلا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل الا الاسلام ، فاخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ، ولهذا قال : (قبل موته) أى قبل موت عيسى الذى زعم اليهود والنصارى أنه قتل وصلب (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أى باعمالهم التى شاهدها هو قبل رفعه الى السماء وبعد نزوله الى الأرض كما ورد فى سورة المائدة فى الآية رقم ١١٦ وما يليها ..

جـ ـ وقال الزمخشرى فى تفسيره ((الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التاويل)) ص ٥٨١ جـ ١ ، .. عند قوله تعالى (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) : الضميران لعيسى عليه السلام بمعنى وان منهم أحد الا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله ، حيث روى : أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الاسلام ...

د ـ وأورد القرطبى فى كتابه (الجامع لأحكام القرآن) ص ١٠ جـ ١ ، ما يدل على نفس المعنى وأعاد النصوص كاملة كما هى مؤكدا باسلوبه الخاص وعباراته المتميزة خبر نزول عيسى عليه السلام .

هـ ــ وقال أبو حيان الأندلسي الغرناطي في تفسيره (البحـــر المحيط) ص ٣٩٢ جـ ٣ : روى أنه ــ أي عيسى عليه السلام ــ ينزل من السماء في آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الاسلام ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وأبو مالك ، ثم أورد أبو حيان ما لا يخـــرج عما أورده غيره ممن سبقوه في معالجـــة تفسير القرآن العزيز .

و ــ وقال الألوسي البغدادي في تفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني) ص ١٣ جـ ٦ ما نصه : .. الضميران لعيسى عليـــه السلام وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وأبي مالك والحسن وقتادة وزيد واختاره الطبراني ، والمعنى : أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام الا ليؤمنن به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها دينا واحدا ، وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصـــليب ويعطي المال حتى لا يقبل ــ أي المال ــ وتلا أبو هريرة رضي الله عنه (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) ...

ز ــ وقال القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) عنـــد قوله تعالى : (وإن من أهل الكتـــاب ، الا ليؤمنن به قبل موته) :أي ما من أحد من أهل الكتاب يدرك نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان الا ليؤمنن به قبـــل موته ، أي موت عيسى ، أي لا يموت حتى ينزل في آخر الزمان يؤيد الله به دين الاسلام حتى يدخل فيه جميع أهل الملل ، إشارة أن موسى عليه السلام ، إن كان قد أيده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زمانا طويلا ، فالنبي الذي ينسخ شريعـــة موسى وهو عيسى عليه السلام هو الذي يؤيد الله به هذا النبي العربي في تجديد شريعته ، وتمهيد أمره والذود عن دينـــه ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة واتباع مستكثرة ، ذلك أمر قضاه الله تعالى في الأزل ، فاقصروا أيها اليهود ، فمعنى الآية إذن والله أعلم : انه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين في عيسى عليه السلام على شك (٢) . الا وهو يوقن بعيسى قبل موته بعد نزوله من السماء ، أي ما قتل وما صلب ويؤمن به عند زوال الشبهة ــ ا هـ نقله القاسمي عن البقاعي . ثم أورد القاسمي بعد ذلك الأحاديث الصحيحـــة الواردة في صحيح الامامين البخاري ومسلم وغيرهما ، ومن تلك الأحاديث ما رواه الامام احمد في المسند ص ٤٣٧ جـ ٢ ، طبـــع الحلبي ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « .. الأنبياء أخوة لعلات (٣) : دينهم واحد وأمهاتهم شتى وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل ، فاذا رأيتموه فاعرفوه ، فانه رجل مربوع يميل الى الحمرة والبياض ، سبط ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، بين مُمَصَّرتَين (الممصرة من الثياب هي التي فيها صفرة خفيفة) ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجـــزية ، ويعطل الملل حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الاسلام ، ويهلك في زمانـــه المسيح الكذاب ، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسود جميعا ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيَّـــات لا يضر بعضهم بعضـــا فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصـــلى عليـــه المسلمون ويدفنونه » ...

ح ـ وقال الحافظ بن حجر العسقلانى فى كتابه (فتح البارى بشرح البخارى) ص ٣٠٣ جـ ٧ : قال العلماء : الحكمة فى نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء ، الرد على اليهود فى زعمهم انهم قتلوه فبين الله تعالى كذبهم وانه هو الذى سيقتلهم اول نزوله لدنو اجله ليدفن فى الارض اذ ليس لمخلوق من تراب الأرض ان يدفن فى غيرها ، وقيل إنه ـ اى عيسى عليه السلام ـ دعا ربّه لما راى صفة محمد وامته فيما انزل عليه من الإنجيل ان يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وابقاه حتى ينزل فى آخر الزمان مجددا لأمر الاسلام فيوافق خروج الدجال فيقتله ... ونقل ـ اى الحافظ بن حجر ـ عن طريق ابى رجاء عن الحسن قال : قبل موت عيسى (يعنى إيمان اهل الكتاب المشار اليه فى الآية الكريمة) . والله انه الآن لحى ولكن ، واذا نزل آمنوا به اجمعون ، ونقله عنه اكثر اهل العلم ، ورجحه ابن جرير وغيره ..

ط ـ واخيرا : قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى فتاواه ص ٣٢٩ جـ ٤ ما نصه : « والمسيح صلى الله عليه وسلم وعلى سائر النبيين لا بد ان ينزل الى الأرض على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة ، ولهذا كان فى السماء الثانية .... لأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة .. »

اما بعد : فهذه مصادر الشريعة (الكتاب والسنة والاجماع) التى لو طرحناها لما قام بناء الاسلام ولو شككنا فيها لتطرق الشك الى كل ما كانت تلك المصادر مصدره ، واى كتاب يعتد به مرجعا بعد القرآن الكريم ، ونرجو عنده الخبر اليقين ، إذا نحن رددنا الصحاح التى اعتبرها علماء الملة من لدن أن بدت للوجود ، وقرئت فى كل ناد ، ودوى صوتها يملأ اجواز الفضاء ، وشع نورها ، فأخرج ضحى المحجة الطاهرة واغطش ليل الكفر البهيم ، فبهرت الدنيا شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارست قواعد العدالة ، والحق توجيهات ربنا جل وعلا وقام القرآن الكريم حارسا من زيغ وسياجا من ضلال . وسدا منيعا لا ينال حماه ضد كل مهاجم كاشح ، وحصنا رفيعا لا يطاول يصد كل غاز بقوة مادية تبسلح ، او بفكر فلسفى تذرع ، او بمراوغة وممالأة اتصف ، او بلسان اعجمى رطن (٤) ، او عربى افصح ، إن جاء شارعا رمحه صدته رماح ، وان مخفيا مكره فالله خير الماكرين ، وعلى هذا امكن ان يقال : انه مما لا يقبل الجدل ، ولا يحتمل المماراة ولا يدعو الى المساءلة ، خبر نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان الذى لا يعلم تحديده الا من عنده مفاتح الغيب التى لا يعلمها الا هو ، وسيكون نزوله ظاهرة اساسية ونذيرا وايذانا بدنو اجل الدنيا ، وطرقا قويا لأبواب الآخرة ولكن متى ؟ هنا يقف القلم عن الجريان ، وتخرس الألسنة عن الكلام ، وتتجه الأبصار والبصائر الى من عنده الجواب وحده ، وتناجى القلوب الطاهرة قيوم السموات والأرض : «ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . »

٢ ـ ونعود الى الفاظ الحديث الشريف موضع البحث ذاكرين معانيها وما

تشير اليه ، إذ مفتتح الكلام الشريف يشعر بقرب نزول عيسى عليه السلام ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم (ليوشكن) أى ليقربن ويكون حصوله سريعا . وهذا من أشراط الساعة ، وعلم توقيتها محجوب عن البشر لسر يعلمه الله تعالى ، وقد ألح السائلون من الساعة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قول الله تبارك وتعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها » الآيات من سورة النازعات . وإنما تسبقها نذر تنبىء عن اقترابها ، ولدى نزول عيسى عليه السلام سيفيض المال ويكثر لدرجة ان الناس لا يهتمون بتحصيله وإنما ينحصر حرصهم على رضا الله تعالى فى العبادة وحدها حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها .

قال ابن الجوزى : يشير أبو هريرة ، رضى الله عنه،عند تلاوته للآية الكريمة فى آخر الحديث الى صلاح الدنيا وقوة إيمان الناس بالله تعالى ، وإقبالهم على الخير وقيامهم بالعبادة لله كاملة غير منقوصة ، وقال القرطبى : معنى الحديث : أن الصلاة حينئذ تكون افضل من الصدقة . لكثرة المال حينذاك وعدم الانتفاع به حتى لا يقبله أحد .. وفى قوله : ويضع الحرب إشارة الى أن السلام سيعم الدنيا ولا يوجد ما يدعو لقتال فسيصير الدين واحدا ، والحكم العدل هو عيسى عليه السلام على سنن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ..

وهذا الحديث لا يتعارض مع ما ورد فى أحاديث أخرى من أن الساعة لا تقوم الا على شرار الناس : وحتى لا يقال فى الأرض : الله . الله . لأن الفساد المشار اليه سيحدث بعد موت عيسى عليه السلام ، ودفنه بالأرض،فحينئذ سيعود الكفر مسيطرا ، ويتجافى الناس عن كل دين ، فقد أخرج الامام أحمد ومسلم من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تجىء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قبل الشام فلا تبقى على وجه الأرض أحدا فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان ، فيقولون : ماذا تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، فيعبدونها وهم فى ذلك فى دار رزق حسن عيشهم ... ثم ينفخ فى الصور . »

والخلاصة : أن نزول عيسى عليه السلام حاصل باذن الله تعالى وتقديره ، ونحن نؤمن بكل ما ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة جملة وتفصيلا ، ومعلوم أن من آمن بالله وأيقن بقدرته التى لا يعجزها شىء سهل عليه التصديق

برسالة رسله عليهم افضل الصلاة وأزكى السلام ، وبالتالى يؤمن بكل ما صدر عنهم ما دام صحيحا متواترا مجمعا عليه من سلف الأمة وخلفها المتعاقبين فى حقب الزمان المتطاولة ، وأما الملحدون فى آيات الله تعالى فلا يقام لهم وزن ، فما يأتون الا بنظريات لا تثبت على المحك العقلى المتزن ، ولئن بدت بعض الأخبار الصادقة غريبة الآن فغرابتها لا تستدعى إنكارها فكم من مجهول كشفه العلم كان الحديث عنه مرفوضا فى كل صور ، ولا يمكن ان يشاع ويذكر وإن صدر به قول وصف مصدره بالجنون والعته ، وقد أبدت الأيام صدق ما كانوا يحدسون، وهذا فى جانب البشر ، فما بالك بما عند علام الغيوب ، لا شك أنه حق وصدق وسيكشف عنه كر الغداة ومر العشى .. وفى الذكر الحكيم : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ٥٣ من فصلت . صدق الله العظيم .

---

(١) : ورد هذا الحديث نصا أو مع اختلاف يسير فى الالفاظ الآتية لا على سبيل الحصر وانما على سبيل المثال :

١ — ورد فى صحيح الامام البخارى فى باب نزول عيسى عليه السلام وذكر فيه حديثين عن أبى هريرة .

٢ — واخرجه الامام مسلم فى صحيحه من رواية الليث بن سعد عن ابن شهاب ، ومن حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

٣ — وذكره أبو نعيم فى المستخرج من سند اسحق بن راهوية .

٤ — وأورده الامام احمد فى مسنده من وجه آخر عن أبى هريرة .

٥ — وذكره الطبرانى من حديث عبد الله بن مغفل .

٦ — ورواه ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما من طريق سعيد بن جبير باسناد صحيح

٧ — ورواه أبو داود باسناد صحيح من طريق عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة مرفوعا .

٨ — ورواه ابن ماجه ، وابن حيان ، والبيهقى .

(٢) يشير الى قوله تعالى فى الآية رقم ١٥٧ من سورة النساء : « .. وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا » .

(٣) بنو العلات : أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى : (لسان العرب مادة علل) .

(٤) رطن الأعجمى رطنا تكلم بلغته ، والرطانة والمراطنة : التكلم بالعجمية ، وقد تراطنا ، تقول رأيت أعجميين يتراطنان ، وهو كلام لا يفهمه العرب ، قال الشاعر : (كما تراطن فى حافاتها الروم) .. الخ .. عن لسان العرب مادة « رطن » .